بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تعود بنا هذه المقدمة ثلاثين سنة، إلى اليوم الذى سمعت فيه أول اقتراح بتأليف كتاب ن محمد عليه السلام.

وكنت أقم معدة للاحتفال بالمولد النبوى فى كل عام.

ولنا رهط من الأصدقاء المشتغلين بالأدب يشتركون فى قراءة كتبه العربية والإفرنجية، ويترددون معا على الأحياء الوطنية، وقلما يترددون على غيرها، فلا يزالون متنقلين فترة بعد فترة بين الحى الحسينى والحى الزينبى، أو بين القلعة، وضاحية العباسية، أو بين الروضة الخليج والأوقات..

وكان رهطا له نقائض الدنيا مجتمعات: نقائض الشباب، ونقائض الحياة الفنية، ونقائض الاحتفال فى البيئة بين ناشئ فى العاصمة وناشئ فى الريف وناشئ فى الصعيد وناشئ فى الثغور، إلى غير ذلك من النقائض التى كانت حيلة لهذه الجماعة، ولم تكن فيها من دواعى التفرق والشتات.

ومن عجائبها أن الذى كان يغريها بالأحياء لوطنية هو قراءتها فى الكتب الإفرنجية التى كانت شائعة بينها، لأنهم كانوا يقرءون أكثر ما كانوا يقرءون كتب "دينكز" و"هازليت" و"لى هانت" و"كارليل" وهم كتاب مولعون بعرض الأخلاق الاجتماعية ودراسة العادات المحلية وتمثيل الريفيين والحضريين فى أوضاعهم المختلفة، ولهم فصول عن الأسواق، والدكاكين، والباعة، تفيض بحسن الملاحظة وبراعة الفكاهة ومتعة القراءة، وتعود من يدمن قراءتها أن يتحرى بنظائرها حيثما رآها.

ففى يوم من أيام المولد - والرهط يزورنى لنؤم الساحة مجتمعين فى المساء - كان الكاتب الإنجليزى العظيم "توماس كارليل" هو محور الحديث كله، لأنه كما يعلم الكثيرون بين قراء العربية صاحب كتاب "الأبطال" الذى

عقد فيه فضلا عن النبى محمد ﷺ، وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل.

وإنا لنتذكر آراءه ومواضع ثنائه على النبى، إذ بدرت من أحد الحاضرين الغرباء عن الرهط كلمة نابية عضبنا لها واستنكرناها لما فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوق الطوية. وكان الفتى الذى بدرت منه الكلمة متذلقا يتظاهر بالمعرفة، ويحسب أن التطاول على الأنبياء من لوازم الإطلاع عل الفلسفة والعلوم الحديثة.. فكان مما قاله شىء النبى والزواج، وشىء عن البطولة، فحواه أن بطولة محمد إنما هى بطولة سيف ودماء!

قلت "ويحك!.. ما سوغ أحد السيف كما سوغته أنت بهذا القولة النابية!".

وقال صديقنا المازنى: "بل السيف أكرم من هذا، وإنما سوغ صاحبنا شيئًا آخر يستحقه.. وأشار إلى قدمه!".

ارتفعت لهجة النقاش هنيهة، ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من الندى، واعتذاره قبل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول، أو خيل إليه أنه مقبول.

وتسائلنا: ما بالنا نقنع بتمحيد "كارليل" للنبى، هو كاتب غربى لا يفهمه كما مفهمه، ولا يعرف الإسلام كما نعرفه.. ثم سألنى بعض الإخوان: "ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابا عن محمد على النمط الحديث؟"

قلت: "أفعل.. وأرجو أن يتم ذلك فى وقت قريب".

ولكنه لم يتم فى وقت قريب.. بل تم بعد ثلاثين سنة!.. وشاءت المصادفة العجيبة أن تتم فصوله فى مثل الأيام التى سمعت فيها الاقتراح لأول مرة.. فكتبت السطر الأخير فيه يوم مولد النبى على حسب الشهور الهجرية،

واتفقت هذه المصادفة على غير تدبير منى ولا من أحد، لأنى لم أدبر لنفسى أوقات الفراغ التى هيأت لى إتمام فصوله وتقسيم العمل فيه يوما بعد يوم.

***

والخيرة فى الواقع..

والخيرة كذلك فى هذا التأخير.

فإننى لو كتبته يومئذ لعدت إلى كتابته الآن من جديد، واحتجت إلى السنين الثلاثين أضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية والفكرية إلى محصول ذلك العمر الباكر.. إذ هو يستطيع المرء أن يمتلئ فيه إعجابا بمحمد، لأنه عمر الإعجاب والحماسة الروحية.. بيد أنه لا يستطيع أن يقيسه بمقياسه وأن يشعر بشعوره فى مثل تجاربه، وفى مثل السن التى اضطلع فيها بالرسالة وإن تقارب السن هنا لضرورة لا غنى عنها لتقريب ذلك الشأو البعيد من شتى نواحيه.

أين كنا قبل تلك السنين الثلاثين؟..

إنها مسافات فى عالم الفكر والروح.. لو تمثلت مكانا منظروا، لأخذ المرء رأسه بيديه من الدوار وامتداد النظر بغير قرار.

كم رأى؟.. كم مذهب؟.. كم وسواس؟.. كم محنة؟.. كم مراجعة؟.. كم زلزال يتضعضع له الكيان وتميد معه الدعائم والأركان؟.. كم، وكم فى ثلاثين سنة مما يطرق نفسا لا تعفيها الحياة من التجارب والعوارض لمحة عين فى نهار؟. وكم ذلك كله من أثره فى توطيد الرأى وتهدئة الثوائر وتجليه الغبار؟.. كيف يضيف ذلك كله إلى الشباب الباكر الذى كان يحلم يومئذ بالعظمة فى كل أوج، وبالأوج المحمدى فى عليا مراتب الأنبياء؟..

الخيرة فى الوقع..

الخيرة فى ذلك التأخير..

واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن "عبقرية محمد" بين يدى القراء - لا نقول إننا قد استوفيناه كما أردناه ولا إننا فصلنا فيه الغرض الذى توخيناه.. ولكن نقول إننا التزمنا فيه الباعث الذى أوحى الاقتراح بتألفيه لأول مرة. كأننا شرعنا فى كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة، فكتبناه ونحن نستحضر فى الذهن تبرئة المقام المحمدى من تلك الأقاويل التى يلغط بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية، ونظرنا اتفاقا، فإذا بأطول الفصول فيه الفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية.. لأنهما كانا مثر الغلط تلك الليلة على مقربة من ساحة المولد، وكانا مثار اللغط فى كل ما رده سفهاء الشانئين من الأصلاء والمقتدين فى هذا الباب.

فسيرى القارئ أن "عبقرية محمد" عنوان يؤدى معناه فى حدوده المقصودة ولا يتعداها فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف إلى السير العربية والإفرنجية التى حفلت بها "المكتبة المحمدية" حتى الآن.. لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها فى هذه الصفحات، على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار فى هذا الموضوع، ثم لا يقال إنه استنفد كل الاستنفاد.

وليس الكتاب شرحا للإسلام أو لبعض حكامه، أو دفاعا عنه، أو مجادلة لخصومه.. فهذه أغراض مستوفاة فى مواطن شتى، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدة عليها.

إنما الكتاب تقدير "لعبقرية محمد" بالمقدار الذى يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى، وبالحق الذى يثبت له الحب فى قلب كل إنسان، وليس فى قلب كل مسلم وكفى.

فمحمد هنا عظيم.. لأنه قدوة المقتدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس.

عظيم لأنه على خلق عظيم.

وإيتاء العظمة حقها لازم فى زل آونة وبين كل قبيل.. ولكنه فى هذا الزمن وفى عالمنا هذا ألزم منه فى أزمنة أخرى، لسببين متقاربين لا لسبب واحد: أحدهما أن العالم اليوم أحوج مما كان إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة.. ولن يتاح لمصلح أن يهدى قومه وهو مغموط الحق، معرض للجفوة والكنود.

والسبب الآخر أن الناس قد اجترءوا على العظمة فى زماننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها.. فإن شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناسا من صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة.. والمساواة هى شرعة السواد الغالبة فى العصر الحديث.

ولقد جاز هذا الفهم الخاطئ للمساواة على حقوق العظماء من الأحياء من المعاصرين ثم أغرى الناس بالجور بعد الجور غرورهم بطرائف العصر الحديث، واعتقادهم أنه قد أتى بالجديد الناسخ للقديم فى كل شىء.. حتى فن ملكات النفوس والأذهان، وهى مزية خالدة لا ينسخ فيها الجديد القديم.

يرون أن البخار يلغى الشراع، وربما كان الاختراع السابق أدل على القدرة وأبين عن الفضل من الاختراع الذى تلاه، ولم يكن ليتلوه لو ما تقدم عليه..

وينظرون إلى أقطاب الدنيا كأن الأصل فى النظر إليهم أن يتجنبوا عليهم ويثلبوا كرامتهم، ولا يثوبوا إلى الاعتراف لهم بالفضل إلا مكرهين.. بعد أن تفرغ عندهم وسائل التجنى والثلب والافتراء.

هذه الآفة حطة تهبط بالخلق الإنسانى إلى الحضيض وتهبط بالرجاء فى إصلاح العيوب الخلقية والنفسية إلى ما دون الحضيض..

فماذا يساوى إنسان لا يساوى الإنسان العظيم شيئا لديه؟.. وأى معرفة

بحق من الحقوق يناط بها الرجاء إذا كان حق العظمة بين الناس غير معروف.. وإذا ضاع العظيم بين أناس، فكيف لا يضيع بينهم الصغير؟..

***

لهذا كان تقدير محمد بالقياس الذى يفهمه المعاصرون ويتساوى فى إقراراه المسلمون وغير المسلمين، نافعا فى هذا الزمن الذى التوت فيه مقاييس التقدير..

إنه لنافع لمن يقدرون محمداً، وليس ينافع لمحمد أن يقدروه.. لأنه فى عظمته الخالدة لا يضار بإنكار، ولا ينال منه بغى الجهلاء إلا كما نال منه بغى الكفار..

وإنه لنافع للمسلم أن يقدر محمدا بالشواهد والبينات التى يراها غير المسلم، فلا يسعه إلا أن يقدرها ويجرى على مجراه فيها.. لأن مسلما يقدر محمداً على هذا النحو يحب محمداً مرتين: مرة بحكم دينه الذى لا يشاركه فيه غيره، ومن بحكم الشمائل الإنسانية التى يشترك فيها جميع الناس.

وحسبنا من "عبقرية محمد" أن نقيم البرهان على أن محمداً عظيم فى كل ميزان: عظيم فى ميزان الدين، وعظيم فى ميزان العلم، وعظيم فى ميزان الشعور، وعظيم عند من يختلفون فى العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا فى الطبائع الآدمية، إلا أن يرين العنت على الطبائع فتنحرف عن السواء وهى خاسرة بانحرافها، ولا خسارة على السواء.

***

إن عمل محمد لكاف لتخويله المكان الأسنى من التعظيم والإعجاب والثناء.

إنه نقل قومه من الإيمان بالله، ولم تكن أصناما كأصنام يونان يحسب للمعجب بها ذوق الجمال إن فاته أن يحسب له هدى الضمير.. ولكنها

أصنام شائهات كتعاويذ السحر التى تفسد الأذواق وتفسد العقول.. فنقلهم محمد من عباده هذه الدمامة إلى عباده الحق الأعلى.. عبادة خالق الكون الذى لا خالق سواه، ونقل العالم كله من ركود إلى حركة ومن فوضى إلى نظام، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعدة أحد من أصحاب الدعوات..

***

إن عمله هذا لكاف لتخويله المكان الأسنى بين صفوف الأخيار الخالدين، فما من أحد يضمن على صاحب هذا العمل بالتوقير ثم يجود بالتوقير على اسم إنسان.

إلا أننا نمضى خطورة وراء هذا، حين نقول إن التعظيم حق "لعبقرية محمد" ولو لم تقترن بعمل محمد.

لأن العبقرية قيمة فى النفس أن تبرزها الأعمال ويكتب لها التوفيق، وهى وحدها قيمة يغالى بها القويم..

فإذا رجح بمحمد ميزان العبقرية، وميزان العمل، وميزان العقيدة فهو نبى عظيم وبطل عظيم وإنسان عظيم.

وحسبنا من كتابنا هذا أن يكون بنانا تومئ إلى تلك العظمة فى آفاقها، فإن البنان لأقدر على الإشارة من الباع على الإحاطة، وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير..

عباس محمود العقاد